مؤلفات الشماس اسبيرو جبُور ٧



تواضُع القدِّيسين

الشماس / اسبيرو جبُور

سلسلة مؤلفات الشماس اسبيرو جبُّور

تواضُع القدِّيسين

مكتبة الجبل للنشر والتوزيع

الكتاب : تواضع القديسين.

الكاتب : الشماس اسبيرو جبّور

الناشر : مكتبة الجبل للنشر والتوزيع .

الطبعة : الأولى للجبل للنشر والتوزيع ٢٠١٧.

للطلب داخل لبنان وسوريا :

الاب باسيل محفوض : من خارج لبنان (٠٠٩٦١٣٨٧٩٣١٤)

من داخل لبنان (٠٣٨٧٩٣١٤)

للطلب داخل جمهورية مصر العربية :

دار مجلة مرقس : ٢٨ شارع شبرا - ٢٥٧٧٠٦١٤

الجبل للنشر والتوزيع : ٠١٢٧٧٣٩٧٧٧٢

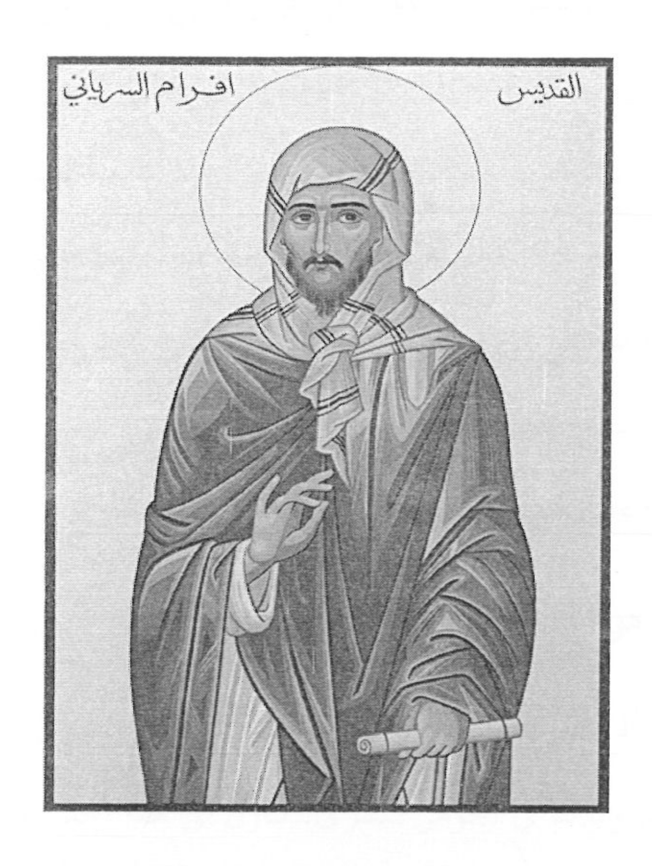
(٤٠ ش الحجاز – مصر الجديدة – الدور الأرضي).

تواضُع القدِّيسين

بقلم المعلم الانطاكي

الشماس اسبيرو جبُّور




القديس
افرام السرياني

تواضُع القدِّيسين

قال الربُّ يسوع " **تعلَّموا منّي فإنّي وديعٌ ومتواضعُ القلب** ". اللّفظة اليونانيّة تعني حرفيّاً " **تتلمذوا لي فإنّي وديعٌ ومتواضعُ القلب**". القدِّيسون متواضعون ووُدَعاء وهذا نتيجةَ جهادٍ روحيٍّ مرير. العذراءُ مريم قالت "**تُعظِّمُ نفسيَ الرب وتبتهجُ روحي بالله مخلِّصي لأنّه نظرَ الى تواضعِ أَمَتِهِ** " . إستحقّت العذراء أن تصيرَ أُمّاً ليسوعَ المسيح بفَضلِ تواضُعِها. في رسالة بولس الرسول الى أهل فيليبي "**جاء فليَكُن فيكُم الفِكر الذي في المسيحِ يسوع**".

وما هو هذا الفِكر في الرسالةِ نفسِها؟.

هو أنّه يسوع له المجد مساوٍ للآبِ في الجوهر ومع ذلك تواضَعَ وصارَ مُساوياً لنا في الجوهرِ البشَري. تنازلَ الى هذا الحدّ ليصيرَ إنساناً من أجلنا. إنسحَقَ انْسحاقاً كبيراً وظهرَ على الأَرضِ في صورةِ إنسانٍ كاملٍ مثلَنا بدون أن يُشعشعَ فيه النور خارجيّاً مع أَنّهُ ممتلىء من النور كما ظهرَ شيءٌ منهُ على جبل التجلّي، وكلُّ ذلكَ من أجلنا لأنّنا لا

نستطيع أن نرى النور الأَلمع من الشمس، هذا النور البارز من جسدِهِ. مِن أَجلِنا أَخفى هذا التشعشُع لنستطيعَ أن نراه ونخالطَهُ ونعيشَ معه. وما اكتفى بذلك بل إرتقى الصليب وماتَ على الصليب ولذلك رفعَهُ الله وأجلسَه عن يمينِهِ في السماوات. إِنحدَرَ الى الأَرض، إنحدرَ الى أعمقِ أعماقِ الأَرض، الى الجحيم فأخرجَ منها الذين آمنوا بهِ.

هذا الإنسحاق الكبير من الإله العظيم دَرسٌ كبير! طريقُ الإنسحاقِ هذه هي طريقُ المسيحيَّة المثلى. القدِّيسون إقتدوا بيَسوع وأمِّهِ ولكنَّهُم في الأَساس بَشرٌ مثل كلِّ البشر، لا يمتازون على سواهِم من حيثُ الوِلادة والخِلقة إنما تعالَوا فوق ضَعفات البَشر ليبلُغوا السماء بجبروتِ جهادِهم الروحي. **كيف تواضعوا؟** في الكنيسة الأرثوذكسيَّة صلواتٌ عديدة أَنشأَها قدِّيسون عِظام ممتلؤن من الروحِ القدس وهي تنطُقُ بتواضُعِهِم الكبير. القدِّيس أَفرام بَطَلٌ من أبطالِ التواضع. كُتُبُهُ مشحونة بعباراتِ الإعترافِ والندامة والتذلُّل أَمامَ الله والصلوات الخشوعيَّة البارَّة. لدينا منهُ الآن في العربيَّة كتابٌ ترجَمَهُ صاحب السيادة المطران أَفرام كرياكوس وضمَّ اليه رُبعاً كان اسبيرو قد صحَّحَ

ترجَمَتهُ العربيّة الرديئة، هذا الكتاب تُحفة في الندامةِ والتوبة. وكان القدِّيس الروسي العبقر ثيوفانوس الحبيس الناسك صاحب المؤلفات العديدة قد استخرجَ من مؤلفات القدِّيس أفرام الصلوات ونظَمَها في ١٥٠ مزموراً، وهي صلوات خُشوعيَّة إنسحاقيَّة تدورُ حولَ التوبة والإعتراف بالخطايا والتذلّل أمامَ الله.

وهناك باسيليوس الكبير ويوحنا فم الذهب ويوحنا الدِمشقي وسمعان اللّاهوتي وسمعان المتَرجِم واندراوس الدِمَشقي أُسقف كريت وثيودورُس وأَخوه وسواهُم ممّن أَنشأوا صلوات خشوعيَّة ممتلئة من الإعترافات القويَّة. فمثلاً في قانون اندراوس في التريودي الذي يُتلى في الصَوم الكبير إنسحاقٌ كبير يَسرُدُ قِصَص العهد القديم والعهد الجديد المتعلِّقة بالتوبة والإِنسحاق والندامة. فهوَ يعتبِر نفسَهُ خاطئاً كبيراً جداً نادر المثال في الخطايا والذنوب. أَمّا فم الذهب فقد قالَ في المطالبسي مردِّداً كلامَ بولس الرسول " **أومن يا رب وأَعترف أنّكَ المسيح إبن الله الحي الذي أَتى الى العالم ليُخلِّص الخطأة الّذين أولُهم**

انا ". ما هذا الإنسحاق من بولس ومن يوحنا فم الذهب! إِعتبرا نفسَيهما أوّلَ الخاطئين في الدنيا. قانونِ يسوع من السواعي الكبير هو قانونٌ خشوعيٌّ كبير. كلمات كبيرة مثلاً "**ما خَطِىءَ اليكَ منذ الدّهر حتى اليوم كما خَطِئتُ انا، أَنقِذْني من بهيميّتي** " . إعترافات بأَنّهُ خاطىءٌ أكثر من اللِّص والزانية والعشّار و... في كتاب التريودي الكبير الذي نتلوهُ في الصوم الكبير آيات من الإِعتراف بالخطايا والنَدامة. في كتاب المعزّي الذي نَتلوه على مدارِ السنة على الأَلحان الثمانيَة عبارات خشوعيّة إِنسحاقيّة قويّة. في كلِّ صلواتِنا إنسحاقٌ وخشوع.

في كلِّ ذلك، **ما هو المحرِّك الأَساسي للقدّيسين لهذا الإِنسحاق؟** بِفعلِ الروح القُدس ضميرُ الآباء القدّيسين صارَ حادّاً جدّاً يُراقبُ صاحبَهُ مراقبَةً شديدةً ليلتَقِطَ أَبسَط الهفَوات فيَندَم ويتوب ويبكي ويتذلّل أمام الله إلتماساً للمغفَرة. هؤلاء الآباء القدّيسون حَفَروا وعَمّقوا، فوَصلوا الى أَعماقِ الأَعماق الدّاخليّة كما جاءَ في إِنجيلِ لوقا. إهتمّوا بالداخل لا بالخارج فكانت النتائج دائماً شعوراً عميقاً

بالذَنب وهذا واقعٌ صحيح.

تصِلنُا أخبارُ الحروب باستمرار، ونعرفُ ما جرى في القرن العشرين من حروبٍ ووَيلات.

مَن إرتكبَ الحروب والجرائم؟.

الإنسان.

مَن يُخالف الأُصول والقانون وتعاليم الإِنجيل؟.

الإِنسان.

مَن يَرفُض الإِصلاح مئة بالمئة؟.

الإِنسان.

ما نِسبة الصّالحين في الكَون؟.

الربُّ يسوع نفسُهُ إِعتَبَرَهُم قِلّةً. ولذلكَ فشعورُ القدِّيسين بالنَقص، بالخَلَل وبالإِضطراب الدّاخلي هو كبيرٌ جداً. كلٌّ واحدٍ منهُم يَعتبُر نفسَهُ أكبرَ الخاطئين على الأرض. هذا الإِنسحاق يُولِّدُ التّواضع الحقيقيّ. فبدونِ الشعور الواعي روحيّاً بالذَنب يَبقى الإِنسان مُغطّاً بالرّصاص. الإنسانُ الروحاني يُراقبُ نفسَهُ بإستمرار فيَكشِف عُيوبَهُ ونَقائصَهُ وخطاياه. يلتقطُ أَبسطَ فِكرٍ منبوذ، يحاسِبُ نفسَهُ على قشَّةِ كبريت، ضميرُه أَحدٌّ من السيف. قانون إِندراوس في الصومِ الكبير هو إعتراف أَنّ ما مِن شيءٍ في العالم أَفضل من ضميرِهِ الذي يَذبَحُهُ ذَبحاً. القدّيسون عميقون داخليّاً باطنيّاً لا خارجيّاً. يهتمّون بالداخل وقلّ ما يهتمّون بالخارج.

وداخلُ الإِنسان معقّدٌ جداً بسبَب الخَطيئة التي قطّعَتنا ألفَ قِطعة وهشّمَتنا، ولذلك فنحنُ نَحمِل عُيوباً منذُ الطفولَة. في كتابي **"قِردٌ أَم إنسان"** نصوصٌ عِلميّة عن الجَنين. فالجَنين نفسُهُ يَغضَب وهوَ في بَطنِ أُمّهِ ومَتى خرَجَ من بَطنِ أمِه كان إستعدادُهُ للغضَب وللرفض كبيراً. يخرُجُ من بيئةٍ دافئةٍ الى بيئةٍ مختلِفة. يُقابل ذلك برَدّةِ فِعلٍ رافِضَة

ويحتاجُ الى الزمن ليتكيَّف مع البيئاتِ الجديدة. ولذلك ينشأُ الإنسانُ مَعيباً: يمضَغُ بِشراهة ومتى ظهَرَت أَسنانُه تَقسو نفسَهُ، قد يعضُّ حُلمَةَ أُمّه... يبدأ بالمشي فينتفخ كبرياءً، إن أنتجَ أيَّ شيءٍ ينتفخ ويتكبَّر. والطِّفلُ متى بدأَ يَعي، يكتشف أَنَّهُ صغيرٌ بالنسبة الى غيرِهِ وسُلطَةُ أَبيهِ وأُمِّهِ وأَخوتِهِ عليهِ تُشعِرُه بالنَّقص. فلذلك نَرِثُ منذُ الطفولة عُيوباً عَديدة تلعَبُ دوراً في نشوءِ الإنسان مُعقَّداً فيتكبَّر ويَتجَبَّر ويَنتفخ ويتباهى ويزهو. كلُّ هذه العيوب التي نشكو منها في الكِبَر لها أَساسُها في الطفولة فلذلك يخرجُ الى المجتمع أُناسٌ معقّدين بشهوَةِ السُّلطة. يشتهونَ السُّلطَة بِشراهةٍ وشراسةٍ وهُمْ مستعدُّون لإرتكابِ العُنف في سبيلِ الوصول الى السُّلطة والمكاسب.

الغَيرة والبَغضاء والأَنانية موجودة منذُ الطفولة. فإذن روحِيّاً، الإنسانُ يحتاجُ الى توبةٍ متواصِلة ليَستغفرَ الله بإستمرارٍ، ليُصلِحَهُ الله ويُنقِذَهُ من الخطايا والمساوِىء. الغَضب والكِبرياء مُرتبِطان ببعضهما: الأَناني مُرتبطٌ بذاتِه والمتكبّر مُعتزٌّ بذاتِه. الأمورُ مربوطةٌ بالذّات والأناني هو مستعدٌّ دائماً للدِّفاعِ عن ذاتِه. نحنُ نَحمِلُ الغلَط والأَنانية

في طيَّاتِنا فينشأُ الطفلُ أنانيٌّ غضوبٌ. تَدفَعُهُ ظروفُ الحياة الى الإِنتفاخ والى الكِفاح ليُحاميَ عن ممتلكاتِه. بطبيعةِ الحال، المتكبِّر قاسٍ ضدَّ الآخرين، والقَساوة مُرتبطة بالغضَب فلذلك الغَضب والكِبرياء هما مُتلازِمان.

بعضُ المتكبِّرين عُنجوهيُّون والعُنجهيَّة مرَضٌ عُضال. هناك أُناسٌ مُعقّدون لا يرتَوون من المدائح والإِطراءات ولديهِم عَطَشٌ قتّال الى ذلك. هؤلاء هُم أطفالٌ كِبار وإن كانوا أَذكياء وإِن كانوا رِجالَ مالٍ كِبار وحُكّاماً كِباراً، هؤلاء هم أَطفال في تصرُّفاتِهم.

العلاج هو في التواضع. الإِنسان المتكبِّر المتعَجرِف هو عُدواني ولو في الجَوف لا في الخارج. في النهاية هو لا يُحبُّ الآخرين من كلِّ القلب لأنَّهُ أَناني والأَناني لا يحبُّ من كلِّ قلبِه لأَنَّ محبَّتهُ ناقصة وللمَنفَعة. الأَنانيُّون نَفعيُّون، والأَنانيُّون حسّاسون يرُدُّونَ الصّاع صاعَين كلّما طُعِنَت مشاعرَهُم ولو خَطأً. الغضب والكِبرياء متضامِنان. متى حطّمْنا الكبرياء حَطّمْنا معها الغضب، ومتى حطّمْنا الغضَب أُصولاً حطّمْنا معَهُ الكِبرياء. الحربُ واحدةٌ ضدَّ الكِبرياء

وضِدِّ الغَضب. نقولُ عامِّياً " **الأرضُ الواطية تشربُ ماءَها وماء الأَرض التي فوقَها** ". فلذلك المتواضع يكسَب كثيراً. النِعمةُ الإلهيَّة لا تَتغلغل تماماً في الِإنسانِ المتَكبِّر، المتعَجرِف، الغَضوب. لا بُدَّ من إقتلاعِ الغَضب والكِبرياء لتُصبِح النفس أَرضاً خصبةً تُعطي ثماراً من ثلاثين أو ستِّين أو مئة. بدون إقتلاعِهما تبقى الأَرضُ حَجِرَة مزروعةً بالأَشوك.

الروحُ القُدس له المجد يحِلُّ في قلوبِ المتواضعين. في الكتاب "**الله يُقاومُ المستَكبرين ويُولي المتواضعينَ نِعمةً** ". إبراهيم تواضَعَ عندَ الله، أَيُّوب كذلك، المزامير كذلك. هناكَ كثيرون تواضَعوا أَمامَ الله وشَعَروا بأَنَّهُم نِفايات أمامَ مجد الله. لا نستطيع أَن نفتَخر على الله، نحن نفتخر بالله.

الِإنتفاخ والغضَب هُما من الأَهواء الشرِّيرة المؤذيَة جداً. الربُّ يسوع المسيح له المجد يُريدُ أَرضاً خصبةً تُعطي ثلاثين وستين ومئة، أي أَن تكونَ الأَرض خالية من الأَشواك والحِجارة وفيها قوَّة إِنباتيَّة قويَّة.

كيف نستطيع أَن نجعلَ الأَرض الداخليّة ممهّدة وجاهزة لحلولِ الروح القدس بدونِ الوداعَة والتواضع؟.

هذا مستحيل. نحتاجُ اوّلاً الى تطهيرِ ذواتِنا من الغضَب والكِبرياء. المتكبّر لا يُحبُّ إلّا من طرَفِ اللِّسان، والغَضوب ذو استعدادٍ للفَورات والإِنتفاضات، فهو قد يكونُ رَحيماً في موقفٍ وغاضباً في موقفٍ آخر.

الربُّ يسوع المسيح لهُ المجد ذو طبيعة مخالفة لهذه الطبيعة. طبيعتُهُ وديعة متواضعة، يتعاطى مع الناس بوضوحٍ وشفّافية.

علاقاتُنا مع الناس تحتاجُ الى رحابةِ الصّدر. الغَضوب هو بِلا رحابة صَدر والمتكبّر كذلك. رحابةُ الصَدر هي فضيلةٌ رائعة جداً تجعلُ صاحبَها سَلِساً في التعاطي مع الآخرين. يستمع إِليهِم بطولِ أَناة ولا يَضجَر من الآخرين لأَنّ الضَجر هو فرعٌ من الغَضب في النهاية. يستقبلُ الآخرين بفرحٍ كبير ويحتملُ الآخرين بصدرٍ واسعٍ جداً.

الغَضوب لا يتحمّل الآخرين والمتكبّر المتعجرف يريدُ أن يَفرُضَ

ذاتَهُ على الآخرين. المطلوب روحيّاً هو أَن نضع الآخرين في القلب، وكلَّما وَضعنا إِنساناً ما في القلب نَضَع يسوع في القلب. إن أحبَبتُ الناسَ أَجمعين، كان في قلبي مئات الملايين من الأَمكِنة ليسوعَ المسيح. المتكبِّر والغَضوب ضَيِّقا الصَدر، وضيق الصَدر مُرتبط بالكبرياء وبالغضَب. ولذلك من أَجل تطبيق المحبة التي هي فضيلةُ الفضائل، نحنُ نحتاجُ الى التواضع والوداعة. متى كانَت فينا آثارٌ من الكِبرياء والغَضب كانت حالَتُنا الدّاخليّة معقدَّة جداً.

والآباء القدِّيسون كيفَ قَضوا على ذلك؟.

بالتواضع وبالإعترافات بالخطايا. كان لديهِم شعورٌ بالذّنب. هذا الشعور كان يجرَحُ ضميرهم، يجرَحُ قلبَهُم بقوةٍ هائلة كلَّما وبَّخهم ضميرَهم على أبسطِ الهَفوات. هُم دائماً في يقظةٍ واعية ليُبقوا صدرَهم بعيداً عن سِهام الشرّير. فالشرّير جاهزٌ دائماً لكَي يجرحَ قلوبَنا بسِهامِهِ. هؤلاء هُم في بُرجِ المراقبة، برُجِ اليَقظة لئلّا يَدعوا أَفكاراً وميولاً وأَهواءً غريبةً تندسُّ عليهِم. التواضع والوَداعة هما فضيلَتان

هامَّتان لكي يعجَز الشيطان عن غَزوِ القلوب. متى إعتَرَفنا بخطايانا اعْترافاً دَقيقاً بتَذَلُّلٍ وانسحاقٍ أَبعَدْنا الشياطين.

الشعورُ بالذَنبِ نوعان:

- شعورٌ في اللّاوعي يُوَلِّدُ الأَمراض النفسيَّة.
- شعورٌ واعٍ مثل شعورُ القدِّيسين لا يؤدِّي الى مرضٍ نفساني بل يَدَع المؤمن يُراقِب نفسَهُ مراقبةً شديدةً ليَحفَظها من الشرير.

الأَوَّل مريض نفسيّاً لأنّ الشعور بالذنب المحشو في اللّاوَعي يُجوِّفُ عُمقَهُ الدّاخلي ويُصبِح سطحيّاً. قد يكونُ مؤمِناً ويؤدِّي فروض العِبادة ولكنَّهُ سطحيٌّ لأَنّ الشعورَ بالذَنب جَعَلَهُ فارغاً. هؤلاء يحتاجون الى تطبيبٍ نفسيّ يؤَدِّي الى تحريرِ طاقاتِهم وتحويلِها الى مَتانةِ الشخص الدّاخلي.

الآباء القدِّيسون رِجالٌ صناديد. باسيليوس، يوحنا فم الذهب، يوحنا الدِمَشقي وسِواهُم أفضال صناديد. ضمائرُهُم الحيَّة كانت

تجرَحُهُم ليتَخلّصوا بالتوبةِ من الأَفكارِ والميول الشرّيرة. الآباء القدّيسون يمتلكونَ وعياً نادراً بالصلَواتِ الحارّة. وبامْتِهانِ الفضائل، تُصبحُ الحرَكة بين اللّاشعور والشعور أي بين اللّاوعي والوعي حُرَّة كثيراً. في شعورِ الذَنب القوي والتَوبة الصحيحة، يُحرِرونَ لاشعورَهُم من نواقصِهِ وتُصبحُ القُوى التي تُستهلَك في اللّاشعور في خِدمة الشعور. فلذلك، هؤلاء يتمتّعون بصَفاءٍ داخليٍّ كبير لأَنّهم ممتلؤنَ من الروحِ القدس. الروحُ القُدس له المجد هو روحُ الوداعَةِ، يتغَلغل في القلوبِ الوديعة الى العُمق.

المرضى النفسانيّون يُرَدِّدون عِبارات الصَلوات ترديداً ببّغائياً، هُم مَعوقون لا قُدرةَ عليهم للإِنطلاق بِكُلِّ النفسِ الى الله. قُواهُم مُجمَّدَة مُستهلَكة في صِراعات لاشعوريَّة لا يكشِفُها لهم سوى التطبيب النفسي على يدِ الخُبراء الفُهَماء. فلذلك التواضع المسيحي من طبيعةٍ أخرى. الآباء القدّيسون صاحونَ واعون يَقِظون بصورةٍ شاملة، لا يَدَعونَ فِكرةً غريبةً تدخُل ساحةَ الوجدان إلّا إن غَدَرَ بِهِم الشَيطان في غَفلةٍ من الزمن. هُم دائماً يملُكونَ الوَعيَ التّام لكلِّ شيءٍ. بالصلاةِ

والأَصوامِ يُطهِّرونَ باطِنَهُم فيتحرَّك اللّاشعور في الشعور حتى يُصبحُ الإِنسان منسَجماً بلا حربٍ بين الروحِ والجسد كما جاء في غلاطية ٥: ١٩-٢٢ :" وأعمالُ الجسَد واضحةٌ وهي العِشقُ والزِنى والنّجاسة والعُهر وعِبادةُ الأَوثانِ والسِّحرُ والعداوات والخِصامُ والغَيرة والشِقاقُ والتحزُّب والمنازعاتُ والبِدَع والحَسَدُ والقتلُ والسُّكْرُ والقصفُ وما أَشبهَ ذلكَ، وعنها أَقولُ لكُم سلَفاً كما قد قُلتُ قبلاً، إنّ الذينَ يصنعونَ مِثلَ هذِه لا يَرثونَ ملَكوتَ الله. أَمّا ثَمَرُ الروحِ فهوَ المحبّة والفرَح والسّلام وطولُ الأَناةِ واللُّطفُ والصّلاح والإِيمان والوداعة والعَفافُ وهذهِ ليسَ ناموسٌ ضِدَّها ".

هُم تخلّصوا بنسبةٍ كبيرة في هذه الحرب وصاروا روحانيِّين. محبّتُهم هي منطلِقَة الى الأَمام لا مُنكمشَة الى الوراء، يُحبّون كلّ الناس. في تعامُلِهِم مع الناس هُم بُسَطاء عادِيّون طبيعيّون بلا تعقيد، شفّافون واضِحون مُستقيمون صادِقون بلا كَذِب بِلا رِياء بلا نِفاق بلا مُوارَبة بلا عُدوانيّة. فهناك عُدوانيّة مَخفيّة في اللّاشعور. التربية المسيحيّة الحقيقيّة تُخلّصُنا من هذه العدوانيّة فنَصير إيجابيِّين. كلّ

الحرَكات السلبيّة في الإنسان هي مُرتبِطة باللّاشعور. أمّا الإِنسان الذي فتَحَ لاشُعورَهُ على شعورِهِ فَتحاً كاملاً وصارَ الوَعي واللّاوَعي لدَيهِ يتعاملانِ بسهولةٍ مَتينة وبانفتاحٍ كبير، فهذا الإِنسانُ غيرُ معقّد. التعقيدُ هو مرضٌ نفسيٌّ. ينهمِكُ المرءُ في حربٍ داخليّة لا شعوريّة ونحن لا نقول إِنّها فئة روحانيّة. فلذلك التواضع والوداعة فَضيلتان كبيرتان تجتمعان في الإِنسان فَيمتلىءَ من الروح القُدس شيئاً فشيئاً، فتَضعُف كثيراً طاقات الخطايا الأُخرى.

الغضبُ هو مصدرُ الطاقات، وبِدون الغضب أو القوّة الغضبيّة لا قوّةَ للإنسان ليمُدّ يدَهُ ويضرِب. فلذلك بالإِعترافات وبالتوبات العميقة في الكنيسة الأُرثوذكسيّة، تصيرُ الأَرضُ ممهّدةً لقَبولِ الروح القُدس. في التواضعُ والوَداعة تتحوّل القوّة الغضبيّة الى بطولةٍ شخصيّة في المتانة وفي قطعِ رؤوس الأَهواء. **لماذا؟**.

لأنّ طاقاتِ الغضب قد إنتُزعت وصارَت في خِدمة الفضائل الأُخرى. فبالقوّة الغضبيّة المحوّلة أستطيعُ أَن أصنعَ الخير الى الآخرين

بجرأةٍ كبيرة. كلُّ القِوى التي كانت تُنفَق في أعمالٍ باطِلَة، صارَت اليوم تُنفَق في أعمالٍ إيجابيَّة: في المحبَّة، في طولِ الأَناة، في الأَعمالِ الخيريَّة، في أَعمال البِرِّ والإِحسان. الذين حوَّلوا قوَّتهم الغضبيَّة، صاروا رجالَ بِرٍّ وقَداسَة. الوُدَعاء صاروا قِدِّيسين . الوديع، بفِعل الروح القُدس هو قِدِّيس. التذلُّل أمام الله، الإِنسحاق أمامَ الله، صلواتُ التوبَة العديدة في الكنيسة الأُرثوذكسيَّة ضدَّ الخطايا، تَسحَق رؤوس التنانين وتُحوِّل طاقاتنا جميعاً للأَعمال الفاضِلَة. الإنسانُ كائنٌ حيٌّ نشيطٌ فَعَّال نَفَّاذ، لدَيهِ طاقاتٍ عديدة. إن ساءَت تربيتَهُ، أَنفقَها في اللّاشعور وكان في النِهاية بطَّالاً مشلولاً. أَمَّا إن صارَ متواضعاً ووديعاً، فهذه الطاقات كلّها تتحوَّل الى أَعمالٍ خيريَّة.

الإِنسانُ مخلوقٌ عظيمٌ جداً ومعقّد. هذا صحيح! فيه إِمكاناتٍ كبيرة جداً إن تحوَّلَت صارَ قِدِّيساً. ولكنَّ إرتباطَهُ بالطعام والشراب منذُ مولِدِهِ وارتباطَهِ في هذه الدنيا في المنظورات والملموسات والمسموعات، وارتِباطِهِ مع العالم الخارِجي يجعلَهُ يُنفِق طاقاتَهُ خارجاً وخارج الميدان الحقيقي. وإذا تعقّدَ نفسيّاً ومَرُضَ نفسيّاً، تُستهلَكُ

طاقاتَهُ في حروبِ اللّاشعور فينتهي تافهاً وسخيفاً وسطحيّاً. إن رأينا متديّنين سطحيِّين بدونِ عُمقٍ، فهؤلاء هم معقّدون نفسيّاً فلا نحكُم على الدِّينِ بسببِهِم. نَحكُمُ على الدِّين في أشخاصٍ مثل باسيليوس وغريغوريوس ويوحنا الدِمشقي والقدِّيسة بربارة وسِواهم والشُهداء القدِّيسين والنسَّاك الكبار الذينَ واجَهوا الموتَ بشجاعةٍ نادِرَة ، هناكَ يكونُ الحُكْمُ على التَقوى والفَضيلة. هؤلاء القدِّيسون هُم شُذوذ بالنسبةِ الى باقي الناس والعالم، والحقيقة هُم الأَصِحَّاء ونحن المرضى. الحياةُ الروحيَّة هي نتيجة تَحَوُّل طاقات الإِنسان الى البِرِّ والتقوى والعِبادة الحَسَنَة والأَعمال الفاضِلَة والَصلوات الحارَّة. القدِّيسون حوِّلوا طاقاتِهم الى الله، حوِّلوا عِشقَهم الى الله، حوِّلوا أقوالَهم الى الله. صارَ كِيانُهم مُرتبِطاً بالله. أمّا المرضى النفسيُّون فَهُمْ أَنانيُّون مُرتبِطون بأَنفسِهِم ومشغولون بأنفسِهِم.

ولكن في الحقيقة يبقى الإنسانُ عظيماً وضعيفاً وهو معقّدٌ بنسبةٍ كبيرة جداً. عجزَ الطب النفسي والطب العقلي والطب الجسدي- النفسي عن سبرِ أغوار الإنسان وما زالوا يخطأون في تشخيص

الأَمراض النفسيِّة ومهما كانوا مُتقدِّمينَ في العِلِم فلا بُدَّ من الصبرِ الجميل. يخطأونَ في التشخيص ويخطأونَ في المداواة.

الآباء الروحيُّون القدِّيسون الذين إستطاعوا أن يفتحوا النوافذ بين الشعور واللّاشعور، والذين يقومونَ بعمليِّة تصفيَة واسعة "**للمكبوتات**" كما نقولُ في التحليل النفسي، ونَجحوا في تحريرِ القِوى المكبوتَة وتحويلِها الى فضائلٍ والى طاقاتٍ في خدمِة الفضائل، هؤلاء نَجحوا عِبرَ التاريخ في تربيةِ تلاميذِهِم تربيةً روحيِّةً مُقَدَّسَة فَوَصَلوا الى أَعمقِ أَعماق الإِنسان وأَخرَجوا مِنهُم قدِّيسين. لا نستطيع أَن نكتفي بالنَظَراتِ السطحيِّة، ولذلك فالآباء الروحيُّون العميقون والمتمرِّسون جداً يُساعدونَ الإِنسان العادي على التمرُّس بالتَقوى والعِبادَة والقَداسَة. هؤلاء هم قادرون على أَن يصنَعوا من الناس قدِّيسين ولكن ليسَ البَشرُ جميعاً مَسطرَةً واحدَة. الكنيسةُ الأُرثوذكسيِّة بالتريودي والمعزِّي والسواعي الكبير والمزامير الروحيِّة وقانون يسوع في السواعي الكبير وسوى ذلك من الكُتُب تُدَرِّب المؤمنين على الخشوع وعلى حُسنِ العِبادة والتَقوى وعلى التواضع الحقيقي

والوَداعة الحقيقيّة.

النجاحُ في التربية الروحيّة جيّدٌ ولكن ليسَت من قاعدةٍ عامّة، لماذا؟. لأنّ المعادن مختلِفة. هناك رُهبان صالحونَ للتطوير وهناكَ رُهبان في درجاتٍ مُختلفة. في جبلِ آثوس منذ دهرٍ يقولون أنّ الراهب الذي يُصَلّي لا يُصابُ بالخرَف ابداً أي يبقى محتفِظاً بنضارتِه، والراهب الذي لا يُصَلّي يُصابُ بالخَرَف. والطِبُّ اليوم وَصَلَ الى نتيجةٍ مماثِلة: النشاط الذهنيّ يحمي الدِماغ من التَلَف ويبقى الإنسان سليماً ولو تقَدَّمَ في السنِّ فهو يبقى خالياً من الخَرَف. جبل آثوس سبَقَ الطب بسنواتٍ عديدة بهذه الأَقوال، وأديرَة جبل آثوس لدَيها خِبرة رهبانيّة واسعَة جداً. هناكَ رُهبان لديهِم بُنيَة نفسيّة قابلَة لتفكيكِ وتحويلِ الطاقات الى فضائل. هذه الفضائل تتطلّب من النفس البشريّة شيئاً من الإستعدادات في البُنيَة. تتطلّب مُرونَة ولين وغضاضة. ما كلُّ الناس في استعدادٍ لهذا التطوُّر. فإذا كان الراهب ذا إستعداداتٍ جيّدة لتحويلِ طاقاتِهِ عن الرذائل الى الفضائل، فهذا يتطلّبُ غضاضةً. على الإنسان أَن يكونَ غَضّاً مثل الأَطفال، والإِنسان لا يحتفظ بغضاضة

الأَطفال. ولذلك فالأمّهات قادرات على خَلقِ الأَطفال خَلقاً جديداً فتستفيد من غضاضة الطفل فتُحوِّل طاقاته. هذا يتطلّب حسٌّ نفسي وتربَوي دقيق ما كلُّ النساء بِقادراتٍ على ذلك. الرجل الذي يحتفظ بالغضاضة يستطيع دائماً أن يتحوَّل. هناكَ أناسٌ قساةُ القُلوب بسببِ التربية وظروف الحياة، وإستعداداتِهم للتحوُّل محدودة.

ولذلك النجاح في الرهبَنة ذو درجات عديدة جداً. ما كلُّ الناس صالحون للنجاح مئة بالمئة في الرهبَنَة. فَهُمْ درجات بحسب البُنية الأساسيِّة. مَن كانَ غَضّاً كالأَطفال كانَ لدَيهِ استعدادٌ لتحويلِ طاقاتِهِ الى الحياةِ الروحيِّة. الناسُ معادِن، ووظيفتُنا دينياً وروحيّاً هي أَن نُساعِد كلّ إنسانٍ على التقدُّم ولَو نسبيّاً في عبادةِ الله فَلا نَطرَح إنساناً جانباً أَبداً ولا نيأَس من إِنسانٍ ما أبداً، لأَنّنا نُؤمنُ بنعمةِ الروحِ القُدس التي تُكَمِّل كلّ شيءٍ. الرُهبان الناجحون، وآباء الكنيسة القدِّيسون اللّامعون ما استطاعوا ذلكَ إِلّا بِفِعلِ الروح القُدس. أُورشليم، مركزُ العِبادة الإِلهيِّة قبلَ المسيح والكتاب المقدس - التوراة بيَدِها، ومع ذلك **ماذا قال يسوع فيها؟**.

" يا أُورشـليم يا أُورشـليم يا قاتلةَ الأَنبياء وراجمةَ المرسَلين اليها ". لم يستطِع ناموسَ موسى أَن يُحوِّلَ كلّ سكان أُورشليم الى قدِّيسين، فبقَوا قُساةُ القلوب يقتلونَ الأَنبياء والمرسَلين. ولكنِّ نِعمةِ الروح القُدس قادرةٌ على التحويل بكميّاتٍ كبيرة. ومنذ نَشأَةِ المسيحيِّة حتى اليوم، التبدُّلات في العالم كثيرةٌ جداً. من الخطأ أن ننظُرَ الى الوجوهِ البارِزة، المهمُّ أَن ننظُرَ الى عامَّةِ الشعب، الى الرُهبان الى الأَديرة. يوحنا فم الذهب عقَدَ مواعظ عن تقدُّمِ الناس بِفَضلِ المسيحيِّة في أيَّامِهِ أي في القَرن الرابع. ونحنُ نستطيع أَن نعقُدَ العِظات أَيضاً عن تَقدُّم المسيحيِّة في أيَّامِنا وقبل أيَّامِنا. علينا أَن ننظُر الى الأَشخاص فردِيّاً لا الى الجماعات ولا الى الوجوه الإِجتماعية فلا ننخدع بالمظاهر، لا ننخدع بالغِنى بالسُلطات. ننظُر في العُمق ونَحكُم في العُمق ونَعرف أَنّ في الشعب قدِّيسينَ. لا ننخدع ابداً. علينا أَن نُفَتِّش في القدِّيسين. هؤلاء القدِّيسونَ في الشعب هم الذين يَحمونَ العالم من الخَرابِ والدِّمار.

مَن هُم هؤلاء القدِّيسونَ في الشعب؟.

اللهُ يعرفُهُم. قد يكونُ أحدُهُم فقيراً غير موجَّهةٍ اليه الأَنظار، بائعُ خضار،...هؤلاء الذين لا نُعطيهم أَهمِيَّة، هؤلاء يجب أَن يجذُبوا أَنظارَنا. هُم بقداستِهِم وطهارَتِهِم لا يُطَبِّلون ولا يُزمِّرون كالفرِّيسيِّين، هؤلاء يعيشون يسوعَ المسيح في الداخل. هؤلاء القدِّيسون البُسَطاء الدراويش ليسَ من السهلِ أَن يكتشفُهُم الإِنسان، ولكنَّهُم هُم حُماة المدن والقرى والدُوَل والأُمَم. بتَقواهِم بصلواتِهم تنحدرُ نِعمة الروح القُدُس على الشعوبِ والأُمَم.

أَيُّها الربُّ يسوع إِلهنا أَرسِل روحَ أَبيكَ القدُّوس الى شعوبِ الأَرضِ جميعاً لِيعرِفوكَ ويَعبُدوا الإِلهَ الحقيقي. ربَّنا يسوع المسيح يا إبنَ الله الوحيد ربّ السماء والأَرض، أَرسِل روحَ أَبيكَ القُدُّوس الى قلوبِ المؤمنين ليَحرِقَ فيها الخطايا ويُجدِّدَ فيها الإِيمان، لِيَكويها بنارِكَ الإِلهيَّة لنشتعل جميعاً إِيماناً ورجاءً ومحبةً، لِنعشُقَكَ وحدَكَ دونَ أَيِّ شيءٍ آخر. إِرفَع قلوبَنا اليكَ، قَوِّي قلوبَنا بِنعمةِ الروح القُدُس لكَ المجدُ والإِكرام والسُّجود الى أَبد الآبدين ودهرِ الداهرين آمين.

قالَ الربُّ يسوع " تعلَّموا منّي فإنّي وديعٌ ومتواضعُ القلب ". اللّفظة اليونانيّة تعني حرفيّاً " تتلمذوا لي فإنّي وديعٌ ومتواضعُ القلب".

القدّيسون متواضعون ووُدَعاء وهذا نتيجةَ جهادٍ روحيٍّ مرير.

العذراءُ مريم قالت "تُعظِّمُ نفسيَ الرب وتبتهجُ روحي باللّه مخلّصي لأنّه نظرَ الى تواضعِ أمَتِه" .

إستحقّت العذَراء أن تصيرَ أمّاً ليسوعَ المسيح بفَضلِ تواضُعِها.



اسبيرو جبُّور

الجبل للنشر والتوزيع